كتافهون ...

قصة بقلم سمير مراد

علقت في الهواء المائع يشدها من طرفيها حبلان مجدولان الى عمود كهرباء ونافذة عالية ، على مفترق اربعة شوارع . تتعرض لاعينهم لو جهدوا قليلا لرفع رؤوسهم .

ويمرون .. ويمرون .. خيط طويل من الخنافس المتمرغة وقد انتظمت في صفوف متراصة ، تئن ارجلهم من الصقيع يجلد الدم في عروقها . صقيع في اذار ، بعد ثلاثة اشهر من المطر . اشهر سحيقة ما توقفت السماء ، لحظة عن الهطول ، خلالها : الطبيعة كانت سخية فياضة ... لكن ((مدينتي بقيت بلا مطر ...))

الارض !.. الارض لا تنهل ولا تعب فقد شاخت عروقها ونخرها الدود والسقم . تربتها هفنة ، يعف من قذاراتها تنن مئات الاشهر. حشراتها هوام بالية ، تزحف جميعها على البطون .. حتى العصافير ، في مدينتي ، تزحف !!.. هذه الخنافس تئن وتلتاع ، يجوب لهاثها المتحشرج شوارع المدينة ، وتهدر سيول قيحها المتفجر من دمل قيحها ... ومع ذلك ، فهي لا تموت ، لا تفنى ... ولا تستطيع ان تشرب نقاوة المطر وحرارة هذه الثلوج . فهي لا تعرف في الثلج الا الصقيع ، ولا تريد ان تاخذ منه الاه !...

ويمرون .. اياديهم مدفونة في اكفان جيوبهم ، واجسادهم حشرت في معاطف صوفية ، واجيادهم غلفت بشالات صوفية ايضا ، مزركشة الالوان : احمر ، اخضر ، ازرق ، اصفر ... وكل هذه الالوان انما اختاروها منسجمة مع الوان عيونهم ! كبات من الصوف توكوك على الارصفة ، تغزل عيونهم نظرات هدها الفراغ ، تتنزه عن يمينها وعن شمالها ... وفيما تحتها ، تلعق الوحول المقوقعة في اثلام الرصيف والتي لطخت الجدران الوطيئة وما تجوف في مثاقبها من عيون وبضاعة هي الاخرى مكدودة ..

نظرات لا تتطلع الى فوق !!.. ((ولماذا يتطلعون ؟ فبلاياهم تأتي من فوق رؤوسهم وتدكهم دكا . لا حيلة لهم في ردها .. انها مقدرة!))

هذا ما قاله والدي . ليس حرفيا ولكن بما معناه .

وتسترجع اذني صوته المكدود وقد حلقنا حول مدفأته ، البارحة ، يلقي علينا درسه المعتاد في المشيئة العليا ، التي تأتي من فوق !. وكانت امي توافقه بهزات من راسها المعصوب . حتى قطتنا اعجبها حديثه واستكانته .. فلقد كانت قابعة عند قدميه ، تتمسح به .

ـ لا تتجبروا يا اولادي ! لنخفض ابصارنا .. الله يعيننا على اجتياز هذا الشتاء القارس .. البشرية كفرت وضلت ، والا لمَ تتدلق علينا هذه السيول ؟ طوفانات ، زلازل ، حرايق ... كلها غضب فوقاني !..

وكم كنت متحرقا لادق عنق تلك القطة الرقطاء . بدت منتشية بكلماته ، تكور في حدقتيها الثاقبتين وتترصدني بنظراتها الملعونة . واندفعت لاطردها ، شاهرا الصندل بيدي . فمرت وقنفذ وبرها وقد اظهرت مخالبها وكشرت عن انيابها .. وكلما اقتربت منها ، ازدادت التصاقا بوالدي .. وكان ان زجرني :

ـ دعها وشانها ! اتركها آمنة ... انك لا تظهر رجولتك الا على القطط .. القطط الآمنة !...

ـ انت تراها آمنة ، اما انا ! فانها تاكلني بعينيها طول الوقت.

ـ عندما اقول آمنة ، يعني انها آمنة .

ـ سافقاهما !

سافقأ عينيك ان فعلت ! اخفض بصرك : (وزوبع صوته تاركا صداه يجوب الغرف) حقا ، قليل حياء !...

وتحول ريقي في حلقي حثالات نحاسية ممجونة حقدا وغضبا . اختنقت الكلمات قبل ان يقذفها لساني .. وما كان ليفعل ، فلقد رست عليه صخرة !..

وبينما كنت الملم نفسي لانقعر من جديد على الكرسي ، سقط الدفتر من يدي . فشبت القطة تعمل فيه خمشا وشخبا .. وتنسل من بين الاوراق قصاصة خضراء على بياض ، وزعها علينا ، البارحة ، رفيقي طارق بمناسبة ((اسبوع الجزائر .)) والتقفتها معاول والدي وراح يقرأ بتمهل متقطع :

ـ ساه ..موا .. في ..اسـ .. بوع اججزائر ،،،

ويلتفت الى الجميع ، رافعا القصاصة بيده يعرضها على اعينهم:

ـ انظروا العلم الجزائري : نجمة وهلال ..

ثم يمضغ في فمه :

ـ الله ينصرهم على الكافرين .. رفعوا رايتنا وبيضوا وجوهنا .

وينتفض بغتة كمن نسي شيئا ، ويصوب في بصرا أعماه اللهيب :

ـ لماذا اشتركت البارحة في مظاهرة المهابيل امثالك ؟ من الذي اذن لك ؟ الجزائريون بغنى عن هذا الحشد من الصراصير والخنافس ... يكفيهم ايمانهم بالله العلي !

ويحول عينيه نحو امي يظهرني لها براسه :

ـ تفضلي ! هذه هي خليفتك : يهرب من القطة ، قليل حياء ، يمشي في المظاهرات ... قولي لي ماذا يصنع غير هذا ؟

((هارب من القطة ، يمشي في المظاهرات .. ماذا يصنع غير هذا؟))

تطن هذه الكلمات ، الان ، في داخلي بينما عيناي يتاملانها ، هذه اليافطة التي يعول بها هواء المدينة ، يطويها وينشرها ، وقد هطل عليها المطر ، على حروفها الحمراء ، فانسابت تضرج قطعة القماش بالاحمر :

مليون جزائري مشرد

بحاجة الى ان يشعروا اننا معهم

اقرأ هذه الحروف للمرة العشرين ، كل مرة تزحم راسي افكار رجراجة . ترتادني كل فكرة منها على حده ، فتعصر دماغي ، واستشعر رفيقتها التالية وكانها تزحزني ..

حروف انسابت دما ، دم هذه الملايين تخضب قمم الاوراس ... ((ما انا منها ؟ ما انا من هذه الدماء ؟!)) يكاد هذا السؤال يصعقني .

هم ! عرفت صلتهم بها .. انهم غرباء عنها ، عن هذا الطهر والشموخ . وما هذه اليافطة الا لاجئة اخرى ، لا تلقى هنا شيئا اخر غير اللامبالاة والجفلان والاستنكار .. لقد انتصب فوقها لوح من تنك ملون ، دعاية لمرطب اجنبي !

انها اجنبية ، اليافطة في هذه المدينة !

البرد اعمالهم ولفحتهم غشاوات صقيعية . فهم صم ، بكم ، عمي . هي فوق تتحدى وحدها العاصفة .. ولكنهم لا يرونها ، ينشغلون عنها بغرف الدناءات والهرب من البرد .

وهل يكونون ، في الصيف ، أفضل ؟ في الشمس اللاهبة ، لا... بل يهربون منها ايضا ، تبول اجسادهم غرقا فحا ..

طارق قال لي ما يكونون في الصيف ، كنت اروي له هذه النكتة:

« قصد رجل مدينة حمص لحاجة في نفسه ، وكان الفصل صيفا ، ودخل عند مزين ليحلق وليخفف المزين عنه شدة الحرارة، روح له بمروحة زرقاء .. وصدف ان عاد الرجل نفسه الى حمص ، وفي الصيف ايضا ، بعد مرور عام ، ودخل عند نفس المزين الذي روح له بالمروحة الزرقاء نفسها : فتعجب الرجل لامر المروحة :

ـ حقا انها لقوية ، هذه المروحة ! صمدت من صيف الى صيف ، ما هي قماشتها ؟

وهامت على شفتي المزين ابتسامة مبهمة ، وروح بشفتيه :

ـ انها صمدت من صيف الى صيف ، لا لان قماشتها قوية ، بل ، لاننا هنا ، لنا طريقتان في استعمالها : فللغرباء امثالك ، نروح لهم كما روحت لك . اما فيما بيننا ، للحماصنة ، فنروح بها هكذا : دكز المروحة بيده وراح ـ يمايل راسه امامها !»

ولم يضحك طارق !

ـ ما بالك لم تضحك ؟ لقد انتهت النكتة !

ـ خطر ببالي سؤال محرج لو ساله الرجل للمزين .

ـ وما هو هذا السؤال (قلتها بتبرم وامتعاض)

ـ ولو كثر الغرباء ؟ ماذا تصنعون ؟

ـ اف .. ما بك ؟ كلما رويت لك نكتة ضاحكة تنهيها بمأساة.. ومتى ستضحك يا طارق ؟

وقذفني بكلمات متراصة ، ثقيلة الوزن ، مؤمنا براسه الى زاوية الشارع :

ـ حتى يجفف هؤلاء عرقهم بمناديلهم او يفنوا !..

وكان هناك في الزاوية جمع من الناس يلتهبون حرا ، وتبول اجسادهم عرقا فحا .. وقفوا تحت صورة الزعيم وراحوا يمايلون برؤوسهم ، تترنح معها اجسادهم ..

هؤلاء ! بقطظهم ، بكلابهم ، بسيارتهم ، بالوانهم ، انهم جثث تحتضر ولا تموت ! يتوقفون تحتها ، في مقهى صغير ، ياخذون شايا او قهوة ، او اركيلة ليتدفاوا ... ولا يرونها .. هذه الدماء ... انهم خنافس .

« هم ايضا قالوا عنك خنفسة ، صرصور ، لا تصنع شيئا اخر غير زجر القطة والسير بالمظاهرات »

هل انني اصنع شيئا غير ذلك ؟ لهذه الدماء ، على الاقل ! كيف اشعرهم ، المشردين ؟ انني معهم ؟ كيف كنت البارحة ، في المظاهرة ؟

كان مد من الافئدة الندية تلتمع فيها النداءات الصخابة : « الجزائر عربية .. يا جميلة ! يا جميلة ! ..» كنت انا في ذلك الحشد اهتف واصخب : « يا ابن بللا ! يا ابن بللا ـ نحنا عنك مبنتخلى » .. وعصفتني دوخة لاجمة : « لماذا تكذب » اتفوه بكلمات احسها باهتة احاول ان احرها بحركات محمومة من يدي ورجلي ، او بالليرتين اللتين تبرعت بهما .. وما استطعت ! فراغ قاحل حدق بي وعزلني عن تلك الحناجر المدوية . كانني في صحراء يمزقني فيها احساس بوحدة شرسة ... وتظما عيناي ، وانفي و.. فمي !

وتريني عيناي ، فجاة ، خيال (ابن بللا) منتصبا بقامته الماردة وجبهته السمراء التي حشدت الكرامات . شبحه يتعاظم ويتاملني حاملا بيده قدحا يشمشع ماء مسلسقا من غدائر الجزائر .

واندفع في ذلك النهر الدفاق ، اشق طريقي في غياهبه ، محاولا التقدم ، والرغوة تفور على زاويتي فمي . رغوة حليبية . ولكن النهر الهادر يقذف به ، بموجاته العاتية ، التي تهدر بالف لسان والف يد: « جميلة .. ابن بللا » .. انهم لا ينتبهون لوجوده امامنا ، ولكني اراه ، انا .. سيرويني .. كلما اقتربت ، ابعدوه عني.. كلهم ضدي وانا في وسطهم ... واصارعهم كي اصل اليه ، كي اشرب... ولكن ! عبثا .. عبثا .. لقد ابتعد كثيرا ، والقدح راح يختفي تدريجيا .. واحاول اللحاق واركض . والصراخ يصمني ، فاسد اذني باصبعي .. اين ؟ لا مفر !.. واكاد اهوي .. فانسندت على طارق وارتحت قليلا :

ـ فتح اذنيك واعتمد ، هنا ، على نفسك !

ـ انقذني يا طارق !

ـ مم انقذك ؟

ـ من ظمأي ، يا طارق ، من عدمي !!..

ـ اشرب هذه الدموع التي تتسكب ، من مقلتيك ، فتستشعر وجودك حارا ، دافئا . اشربها ، هذه الدموع ، التي تصعد من كل فجوة وعي فيك ، واخلع عن عينيك هذا السراب الهائم . فانت في حضور ابن بللا ورفاقه ورفيقاته ، مجتمعين في قلب كل واحد منا ، الان !

ـ وهل تكفي هذه الدموع ؟

ـ لا . تنتظرك اعمال كبيرة تكتسب فيها وجودك عند تاديتها ، كل لحظة ... وعندما تكتمل سيكون وجودك كبيرا ...

« سيكون وجودك كبيرا ! .» وانتصبت في وسط الشارع اجر انظارهم كي يقراوا :

مليون جزائري مشرد ين

بحاجة الى ان يشعروا اننا معهم

ومن يعاند منهم او لا يبالي ، رحت اصفعه على جبهته المعفرة. وتجمعوا علي يضربونني ، واصابعي تشر على سحنهم وتلويها صوب اليافطة الحمراء ، وصوتي يصرخ فيهم :

ـ اقراوا ! اقراوا ! ولا تكتفوا بالقراءة.. انزعوا لوح التنك من فوقها ، علنا ننزع تفاهتنا .. عل هؤلاء المشردين ينقذونا من عدمنا ويغسلون آثامكم .. حدقوا بها عاليه ، ترفرف فوق رؤوسكم ...

وتلتقط اذني اخر صوت من بينهم :

خذه الى السجن يخاطب جدرانه الصماء علها تصغي اليه . فهنا الصقيع وليس من يسمعه ، هذا الوطني المغفل ..

والقيت نظرة شاحبة اتبين فيها صاحب هذا الصوت لاراه انيقا، متعطرا ، يحمل بيده جريدة فرنسية .

بيروت — سمير مراد

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي
قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش